# الإصلاح الأمريكى، والكرامة الوطنية! (*)

من خمسة وثمانين عاماً، وتحديدا فى مايو ١٩١٩ ـ أعلنت الحكومة البريطانية صاحبة الطول والحول فى ذلك الزمان، بأنها متجهة إلى إيفاد لجنة إلى مصر المحروسة برئاسة اللورد ألفريد ملنر وزير المستعمرات آنذاك، للقيام بما أسمته الحكومة الإنجليزية العلية: "تحقيق أسباب الاضطراب التى حدثت أخيرا فى مصر وتقديم تقرير عن الحالة فى تلك البلاد وعن شكل النظام القانونى الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية (!؟) أسباب السلام واليسر والرخاء فيها، وتوسيع نطاق الحكم الذاتى لها توسيعا مطرد التقدم والترقى، وحماية المصالح الأجنبية "!!

هاجت خواطر المصريين ولم تستتم لهذا التدخل من الدولة المحتلة العظمى، وتنادوا بمقاطعة اللجنة المزمع إرسالها للنظر فى إصلاح حال مصر، فلم يجد فارضو الحماية بدّاً من إرجاء إرسال اللجنة لى ديسمبر ١٩١٩، حيث أعلنت الدولة "الحامية" "المهيمنة" تشكيل اللجنة الذى ضم إلى رئيسها اللورد ملنر عددا من الدبلوماسيين والقادة العسكريين والبرلمانيين والصحفيين والقانونيين، فما إن أعلن عن تشكيل اللجنة فى سبتمبر ١٩١٩ حتى اندلعت مظاهرات الاحتجاج فى كافة ربوع مصر، مقرونة بقرار كافة القوى الوطنية والسياسية على مقاطعة اللجنة.. لم ينخدع أحد بالنوايا الطيبة المعلنة، ولا بما تضمنه بلاغ دار الحماية من أن غرض اللجنة فى الوقت نفسه:

---

* ٢٠٠٥/٢/١٢

"تأسيس نظام دستورى تحت إرشاد بريطانيا العظمى على قدر الحاجة (١٩)، النظام الذى يمكن عظمة السلطان ومعالى وزرائه وحضرات مندوبى الأمة فى دوائرهم الخاصة من الاشتراك فى إدارة الأمور المصرية، وذلك على أسلوب يزيد فيه نفوذهم على مرور الأيام (١١٩)، وأن مهمة اللجنة تقرير نظام الحكم للوصول إلى تلك الغاية(١١٩)٠٠٠٠ "

توالت بيانات القوى الوطنية برفض لجنة ملنر وما تتجمل به، فأصدر الحزب الوطنى بلاغاً بأنه لامفاوضة إلاّ بعد الجلاء، ودمغ حزب الوفد بيان الحكومة البريطانية لتبرير إرسال ومهمة اللجنة بأنه مخالف للحق والعدل، وللعهود الرسمية، ولمبادئ استقلال الشعوب، وأن الشعب المصرى هو الذى بيده وحده مصير بلاده. لا يقبل وصاية أو توجيها من أحد !!!

لم ينسلت من الإجماع الوطنى أحد ليقابل هذا أو ذاك من ممثلى بريطانيا العظمى أو يتحدث معه أو إليه عن أحوال مصر وما تستدعيه أو تستوجبه، فذلك عمل مصرى يقوم به المصريون، وهم أكفاء له، وخرجت المظاهرات فى القاهرة والإسكندرية وكافة المدن والقرى والنجوع المصرية تندد بهذا التدخل فى شئون البلاد مهما كانت دعاواه أو لافتاته أو حيله أو تجملاته، واستقالت وزارة سعيد باشا، واستعاضت سلطات الإحتلال عنها بتأليف وزارة ملاينة برئاسة يوسف وهبه باشا، ولكن أقباط مصر كانوا أول من احتج على رئيس الوزراء القبطى المعين، فاعلنوا فى اجتماع حاشد سخطهم واعتراضهم على قبول يوسف وهبه باشا تأليف هذه الوزارة، وعقد المحامون جمعيتهم العمومية يوم ٢١ نوفمبر ١٩١٩ وقرروا بالإجماع الإضراب عن العمل لمدة أسبوع يبدأ من اليوم التالى لحضور اللجنة وعلى أن يجتمعوا قبل انتهاء الأسبوع بيوم واحد ليقرروا الخطة التى يتبعونها بعد انتهائه! ولم تفلح الاعتقالات التى توسعت فيها سلطات الاحتلال

فى قمع الاعتراض الشعبى على التدخل فى شئون مصر أو فرض الوصاية على ما يلزمها أولا يلزمها، مثلما لم يفلح التحذير الذى أصدره اللورد اللنبى لوقف المظاهرات، فلما أن وصلت اللجنة فى ٧ ديسمبر ١٩١٩ - لم يستقبلها بمرفأ بورسعيد إلاّ المحتلون الإنجليز، وتجددت فى البلاد المظاهرات والاحتجاجات، وأضرب الطلبة والمهنيون والحرفيون والعمال فى طول البلاد وعرضها، وعاود المحامون إضرابهم من يوم الجمعة ١٢ ديسمبر ١٩١٩، وحذا المحامون الشرعيون حذوهم، واجتمعت السيدات المصريات بالكاتدرائية المرقسية وأعلنّ الاحتجاج على قدوم اللجنة ووجوب التزام الجميع بمقاطعتها، واجتمع الموظفون بمسجد الشيخ صالح أبى الحديد وقرروا الاحتجاج والإضراب، ولم تفلح الإنذارات الموجهة إلى الصحف فى وقف نشر أنباء المظاهرات، واضطر الجنود الإنجليز إلى اقتحام الأزهر الشريف فى ١١ ديسمبر ١٩١٩، فاهتزت لهذه الجريمة مصر كلها، وثارت ثائرة شيوخ الأزهر وعلمائه ووقفوا فى طليعة المعترضين على اللجنة المنادين بمقاطعتها، وتوالت الأحداث تبعاً، حتى لم يجد أمراء الأسرة المالكة بداً من الانضمام إلى جموع الشعب، والمطالبة بالاستقلال التام فى رسالة شهيرة أصدرها الأمراء كمال الدين حسين وعمر طوسون ويوسف كمال وآخرون، أتبعوها بمذكرة احتجاج إلى اللورد ملنر، حتى صارت وزارة يوسف وهبه باشا بمعزل تام عن الشعب، وتعرضت الوزارة لعدة اعتداءات على وزرائها، ولم تجد لجنة ملنر بداً من مغادرة البلاد فى مارس ١٩٢٠ وقد باءت بالإخفاق الذريع بعد أن تكاتفت كافة القوى الوطنية على عدم ابتلاع طُعم أن اللجنة أتت من أجل النظر فى إصلاح الأحوال المصرية!!

## ألا يتعلم الحاضر من الماضى؟!

قد مضى على ذلك قرابة قرن من الزمان، انتهت خلاله عهود الاحتلال والحماية والوصاية، ولذلك فإننى لست أدرى - ولعلى أدرى وأتعجب ولا أستسيغ! - ماهو المنطق الذى تصدر عنه سياسة حكومة الولايات المتحدة فى هذا الزمن الكسيح، وماهى السلطة التى تعطيها مقاليد رسم سياسات ونظم بلاد العالم، وفرض هذه الرؤية "الأمريكية" على أوطان الدنيا المحكوم كل منها بظروفه الجغرافية والمناخية والبيئية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والسياسية، أو فرض الوصاية "الأمريكية" التى تكاد تكون بديلة للحماية "فى الزمن الغابر" على شعوب الأرض، بينما كل شعب أدرى بظروفه، وقديما قيل: "أهل مكة أدرى بشعابها".. فما هى الرؤية الفذة التى تستطيعها العين الأمريكية ولا تقدر عليها العين السورية أو الإيرانية أو غير ذلك من الأقطار التى تريد سياسة الولايات المتحدة أن تحل محل شعوبها وحكوماتها فى الرؤية لهم وعوضا عنهم، والتقرير لهم وبدلا منهم، ثم فرض الرؤية الأمريكية واللازم عمله طبقاً لرغبتها العليّة وإلاّ فالويل والثبور وعظائم الأمور!!.. ولا تتحرج فى هذا التدخل السافر فى الشئون الداخلية لأقطار الأرض من أن ترسل موفديها رجالاً ونساءً، ومسئولين حاليين وآخرين سابقين، وبرلمانيين وصحفيين، للقاء الناس والاستماع إليهم أو تحريضهم أو المشورة عليهم، منتقية فى هذا التداخل العجيب عناصر تثير العشرات من علامات الاستفهام فى انتمائها أو توجهاتها أو سلوكها أو فى عقلها ذاته!!

فإذا كنت أفهم - ولا أقبل! - لماذا تحاول الولايات المتحدة التدخل فى شئون الدول الأخرى، وتبعث بممثليها إلى أقطار الأرض ليدسوا أنوفهم فيما لا دخل لهم فيه، فإننى لا أفهم، ومن المحال أن أفهم أو أسيغ أو أقبل أو أغفر هذا التهافت على لقاء السيدة أولبرايت وزير

الخارجية الأمريكية السابقة.. فالوزيرة السابقة صاحبة تاريخ عريض فى كراهية ومعاداة العرب والانحياز التام إلى إسرائيل، وصاحبة حاضر موصول بذلك الماضى البغيض!.. إنها ترأس الآن مؤسسة أمريكية معنية بالتدخل فى الشئون الداخلية لمختلف بلدان العالم والعبث بأنظمتها وزعزعة استقرارها واستبدال حكامها بآخرين يجيدون الركوع - بالولاء الكامل - للأسياد الآمرين من هناك!.. المنظمة التى ترأسها أولبرايت تحمل اسم "المعهد الوطنى الديمقراطى للشئون الدولية ".. والشئون الدولية المعنية هى شئون بلدان العالم بدعوى رعاية الديمقراطية، وتحت هذه "الذريعة" قاد المعهد بأدواته وعملائه عملية زعزعة النظام الحاكم ( الموالى لروسيا ) فى أوكرانيا، وإحلال نظام بديل موال ولاءً كاملاً لأمريكا!!.. وفى الوقت الذى تقود الولايات حملة لحوحة لتتبع وملاحقة حركة رءوس الأموال بدعوى تجفيف الإرهاب أو مقاومة غسيل الأموال، فإنها تغضى - بداهة! - عن المسالك التى يسلكها المعهد المذكور - رئاسة أولبرايت! - فى ضخ الأموال إلى عملاء أمريكا لزعزعة الاستقرار داخل بلادهم طبقا لسيناريو مخطط ومرسوم يدخل فى اعتباره كل ما يلزم لتجنيد العملاء وصياغة برامج لأحزاب أو جمعيات مشبوهة لتمهيد الأرض لما تريده الرغبة العليّة!!

ليس مصادفة فى قراءة دور أولبرايت بعد أن تخففت - بترك منصبها - من القيود الرسمية، هذا التزامن الذى لايفوت البصير بين زياراتها لدول المنطقة وبين الصواريخ التى أطلقها لرئيس بوش الابن فى خطابه الأخير وأنذر فيها سوريا وإيران، وغمز على غيرها!! فإذ كانت سياسة الولايات المتحدة تعرف ما تريد، فماذا يريد الذين هرعوا فى مصر وغير مصر لشرف لقاء السيدة أولبرايت؟!!.. وما عذر - أو تفسير - الحديث المتشكى إليها عن أحوالنا الداخلية، ولماذ يتجه التشكى والنقد والتماس الحلول لدى السيدة أولبرايت ومن

أرسلوها، بينما الساحة فى بلادنا مليئة الآن بصحف معارضة لم تترك مسألة أيا كانت حساسيتها دون أن تخوض فيها وتتناولها بكل ما تحب !

قد تعجبت ولا زلت أتعجب من سياسة ضريرة تحرض عناصر مشبوهة على ما تزعم أنه إصلاح.. وليس أحد يختلف على الإصلاح أو يناهضه أو يشيح عنه أو يصادر عليه، وليس من بأس بل هو واجب أن ينهض له فى كل بلد العناصر العاقلة المخلصة القادرة على المساهمة بجد وأمانة وصدق فى تيار الإصلاح فى هذا البلد أو ذاك.. بيد أن هذا اختيار داخلى أولاً، ولأهله ثانيا، وللقادرين عليه غير المشبوهين فى انتمائهم أو توجههم ثالثا.. ولذلك فلست أفهم، ومن المحال أن أفهم، التورط فى تحريض شخص مشبوه فى إنتمائه الوطنى، أو مشكوك فى إتزانه أو إتزانها ـ على المزاحمة ( المحرض عليها ) على قمة قيادة بلده، أو التماس الرأى والنظر لدى الأحداث أو التافهين أو الذين تورموا فجأة تورماً عجيبا يدق بقوة ناقوس خطر "العمالة" وصناعة النجوم.. وهما صناعة قديمة تنهض عليها قوى متغولة تصطنع نجومية لعملاء غارقين فى العمالة حتى النخاع ثم تدفع بهم إلى الصفوف الأولى لينهضوا بالأدوار المرسومة أو التى ترسم لهم ـ فإذا كان للقوة الكاسحة من النفوذ والقوة والهيمنة ما يتيح لها أن ترى لغيرها وتشير لغيرها وتقرر لغيرها ـ أليس ذلك يستوجب ـ إن جاز ذلك كله جدلا!! ـ أن تحسن الرؤية وأن تحسن الفهم وأن تفهم أن التدخل فى شئون مجتمعات غريبة، ناهيك بالفرض والقسر والإرغام، يمكن أن يؤدى إلى اضطرابات فادحة تزيد هموم العالم وكوارثه هموماً وكوارث واضطرابات جديدة لأن ماسك العصا لا يحسن القيام بدور المايسترو ـ ناهيك بأن يفهمه ويدرك حدوده ولوازمه !

هذه خواطر طافت وتطوف بصفحة وجدانى وأنا أراقب وبالصدر ضيق وبالفم ماء كثيرا من المآسى التى تزج بها سياسة أجنبية

ضريرة إلى "دخائل" شعوب وأوطان بغير حكمة ولا بصيرة ولا شرعية، وطاف بخاطرى مع هذا كله إجماع الأمة المصرية الذى كان - على رفض ومقاطعة لجنة ملنر دون أن تخيل عليها دعاوى الإصلاح المروم التجمل بها، وهو إصلاح نرجوه ونتمناه ونصمم عليه ونسعى إليه، مثلما طاف بى وأضنانى كبار صغار، وصغار صغار، يتهافتون إلى لقاء موفدى حاكمة العصر للحديث إليهم فى أخص شئون بلادهم طلباً للرضاء العالى والتباريك الأمريكية!!.. إننا أدرى بشئوننا كأهل مكة الأدرى بشعابها، نملك البصر والعقل والحكمة للنظر فى حاضرنا، ونملك إلى جوارهم العزم والإرادة لاستشراف مستقبلنا والانتقال الواجب إليه - بيدنا لا بيد أو وصاية غيرنا!